الفصل السادس
المحبة والإحسان والرأفة

من أجمل الفضائل وأسماها في الروح الإنسانية الإحسان والرأفة وهي من أرفع وأعلى وأشرف الألقاب فهي تسمو بالشخص لمرتبة الأمراء والملوك وكانت لزاما على الأمراء والنبلاء أن يقترن سلوكهم بهذه الفضائل وأتفق النقاد جميعا على أن من مصلحة الأمير أو الحاكم أن يقود شعبه بالرأفة أفضل كثيرا من قيادتهم بالعصا والسيف. ويذكر التاريخ أمثالا لكلا الحالتين من الذين استبدوا في حكمهم وقهروا شعوبهم من الذين نجحوا في قيادة شعوبهم ونالوا حبهم.، وكل الفلسفات التي عرضنا لها حتى الآن من فلسفة كنفوشيوس ومن بعده تتميز بأنها تشترك في نقطة واحدة وهي الاهتمام بالحالة السيئة التي كانت عليها الشعوب القديمة والذين طحنهم الفقر والظلم ومزقتهم الحروب وهم من انتقدتهم شعوبهم وناشدتهم منع أو تخفيف ابتزاز الشعب وظلمه، والناس كانوا قديما منظمين إلى فرق وكانوا عصاه أحيانا وكانوا فقراء ولكنهم كانوا

يعملون بجد كاف لإثراء حكامهم، وهذه الظروف هي التي أفسدتهم، والفلسفة التشريعية Legalism كانت هي فلسفة الثورة المضادة counterrevolution تنشد الدفاع عن نفوذ الحاكم ضد الإصرار المتزايد على أن الحكومة قائمة من أجل الشعب لا من أجل الحاكم وأن أية حكومة تفشل في إرضاء الشعب مقضي عليها، وأدعى كثير من العلماء ولازال حتى الآن بعضهم يدعون أن المشرعين ليسوا بالمرة رجال ثورة مضادة ،وقد نادى المشرعون أنفسهم بأنهم مجددون جريئون يعلنون عن رأي جديد وهم في الحقيقة أشبه بعصا مغمورة في الوحل يتمسكون بالنظريات البالية وليسوا على استعداد لأن يشهدوا العالم وقد استفاد من المدنية .

ولقد كان عند كونفوشيوس نفسه بعض الاستعداد لأن يتحدث مثل شخص متحفظ على الرغم من أن برنامجه ثوريا في الأساس. وكان المتأخرون بعده اعتقدوا بأنهم تقليديين ولكن تمسكهم بالتقاليد أتخذ صورة غريبة جدا، فكانت الأسطورة تملأ الماضي بكل أنواع القوانين والتجارب التي لم يكن لها وجود على الإطلاق على الأرض أو في البحر ولكنها كانت التعبير الخيالي لما كان يتصوره الكنفوشيوسيين وما ينبغي أن يكون عليه العالم المثالي. وقد دونت الأساطير في كتب وقبلت على أنها صحيحة ودخل جانب منها في صلب الدراسات القديمة وهكذا اعتقد الكنفوشيوسيون أنفسهم

أنهم كانوا يدافعون عن العودة إلى خبرات القدامى بينما كانوا في الحقيقة يقترحون تجديدات كاملة، وقد أتفق الكنفوشيوسيون مع أولئك الذين وصموهم بأنهم تقليديون حتى لو لم تكن هذه هي الحقيقة .

كانت الكنفوشيوسية تعارض الحكم بالقوة بدلا من الرأفة والإقناع، ودافع المشرعون عن قيام حكومة مركزية يجب أن تباشر سلطة مطلقة تهدد بالعقوبات القاسية وهذه السياسة لم يكن يكرهها الكنفوشيوسيون فحسب، بل أيضا السادة الإقطاعيون التابعون الذين كانوا يفقدون نفوذهم بل وعروشهم أيضا من جرائها، وعلى أساس نظرية أن أولئك الذين لهم عدو مشترك يجب أن يتصادقوا، لذا كان مفروضا أن يؤيد الكنفوشيوسيون النظام الإقطاعي من ناحية المبدأ .

والملاحظ أن التسميات التي أطلقت على ملوك أوروبا لم تكن على خطأ في تسمية ملك إنجلترا بملك الشياطين نظرا للتمرد المستمر والثورات المتواصلة ضده التي كان يعلنها الشعب ضد الحكومة والتي كانت تنتهي بإبدال الأمير بآخر أو الملك بغيره، وفي فرنسا كانوا يطلقون عليه ملك الحمير لتعدد الرسوم وفداحة الضرائب العامة في البلاد، أما في أسبانيا فكانوا يسمونه بملك الرجال نظرا للحب الجارف والطاعة العمياء التي كانت تضمرها له رعيته.

وكنفوشيوس لم يكن يؤيد انتقال المناصب بالوراثة والنفوذ الإقطاعي ولكن كان يحرص على أن تكون على أساس الموهبة

وهذا يتعارض مع ما يدعونه عنه، ولم يكن المشرعون مخطئين تماما في إدعاءاتهم بأنهم كانوا مجددين، فالكثير منهم كانوا ينشدون فصم عرى رابطة الأسرة الموقرة القائمة على سلطة الأب باعتبار أنها تمثل نظاما قديم العهد، ولقد أيدوا الملكية الخاصة للأرض ولكن يجب أن نلاحظ أنهم أيدوا أيضا الرقابة الحازمة التي تمارسها الدولة على كافة الأنشطة التي قد يزاولها الملك كما أنهم أيدوا بقوة الحكومة المركزية التي تعمل وفقا لقوانين محددة وصارمة وكانت شيئا جديدا

وفي وقت متأخر يرجع لسنة ٣٦١ ق.م أن ولاية (تشن) غرب الصين كان ينظر إليها على أنها دولة بربرية وأن مفاهيم كنفوشيوس والعدالة والرأفة والمحبة لم تكن مفهومة في هذه الولاية، ويذكر أن (هسين تزو) توجه لزيارة هذه البلدة فوجد شعبها أناس بسطاء ريفيين يخشون الموظفين ومؤدبين غاية الأدب. أما بالنسبة للموظفين فكانوا شديدي الالتزام بعملهم وليس لهم مصالح شخصية، وكان الشعب والموظفين من الطابع القديم ولم تكن بهم أية حماقة من حماقات العصر الحديث. وواضح أن مثل هذا الشعب لم يكن من الصعب إخضاعه لتنظيم تسلطي، ويلاحظ أن الشعب لم يتخل تماما عن التنظيم الذي كان متبعا قديما. [٣٦] "

[٣٦] باتريك سميث ." اليابان رؤية جديدة " ص ٦٤- ٦٧.

وهنـاك اخـتلاف بـين الفلاسـفة الكنفوشيوسـيين والفلاسـفة المشـرعين، فكونفشيوس شب في ظروف وضيعة كما قيل سابقا ويقال أن منشيوس كان سليل أسرة نبيلة ولكن حتى هذا ليس بالأمر الواضح. وإذا كان صحيحا فإن أسرته يبدو أنها كانت في أحوال سيئة نسبيا في أيامه بينما نجد أن أكثر فيلسوفين مشرعيّن تأثيرا كانا فردين في عائلتين كانتا بالفعل تحكمان في أيامهما فكان من الطبيعي أن يدافعا عن القضية لصالح الحكام وليس لصالح الشعب .

وحينما أتفق كل النقاد تقريبا على أن وجهة نظر المشرعين هي في الحقيقة وجهة نظر الحاكم لا يمكننا أن نفترض أنهم أعلنوا أن سياساتهم نظام استبدادي إذ هم يذكرون لنا على النقيض من ذلك أنهم وحدهم يعملون بإخلاص لمصلحة الشعب وهم في الحقيقة كما يقولون يدافعون عن الحكومة الجادة .ولكن الحكومة يجب أن تكون جادة لصالح الشعب تماما كالجنود الذين يجب أن يموتوا للصالح العام أو كلحم مصاب حول جرح يجب أن يجرح حتى يشفى الجزء المصاب ، والحاكم يوقع العقاب على الشعب ويؤكد المشرعون أنه يفعل ذلك فقط لمصلحتهم الذاتية. [٣٧]"

ومن المعروف عن النظام الإقطاعي في اليابان أن كل أمير كان لا يهتم كثيرا بأمر شعبه وكان يعلق أهمية كبرى على المسؤولية التي

[٣٧] باتريك سميث ." اليابان رؤية جديدة "– التاريخ المخبأ ص ٦٨- ٦٩.

تربطه بالأجداد والدين وذلك بإيكالهم له مسئولية تلك الطائفة من البشر ومصير حياتهم فهو مسئول عنهم دينيا ومدنيا، وكنفوشيوس قال أن الأمير عندما يكون محبا لما يحب الشعب وصادقا مترفعا عما تستهجنه الأمة يصبح أبا رءوفا لها وتكون الأمة ولدا مطيعا له ومن هنا يتضح لنا التوفيق بين الرغبات العامة والإدارة الملكية .

وبالرغم من أن المشرعين كانوا ناقدين بصراحة ومحتقرين للكنفوشيوسية، إلا أن كلتا الفلسفتين، على الرغم من ذلك كان بهما بعض النقاط المشتركة إذ أن كنفوشيوس لم يرض عن فوضى الإخلال بالنظام في عصره تماما كما فعل المشرعون وكان يؤيد المركزية برغم أنه كان يذم المنهج التشريعي في تحقيقها، وبرغم أن المشرعين قد هاجموا كنفوشيوس، فقد كانوا يحترمونه احتراما شديدا حتى أدعوا في بعض كتبهم أنه قد تحول إلى التشريع، بل تمادوا في ذلك بأن وضعوا أحاديث ونسبوها إليه . أما (هسين تزو) فشكل جسرا بين الكنفوشيوسية والمشرعين فرغم معارضته للأفكار التشريعية فإن رأيه في أن الطبيعة البشرية شريرة، ونزعته التسلطية في الأمور يميلان إلى الأتجاه التشريعي. وكان موتزو من أشهر تلاميذه وكان يعد أعظم مشرع على الإطلاق.

موتزو يكره الحرب ومبدأه " الاندماج بالرئيس" الذي يتمسك بأن" ما يظن الرئيس يجب على الجميع أن يؤمنوا بأنه صواب، وما

يعتقد أنه خطأ يجب على الجميع أنه أن يؤمنوا بأنه خطأ " وطالب الناس أن يبلغوا عن الأعمال الشريرة والخيرة التي يقوم بها الغير في مجموعاتهم إلى رؤسائهم بطريقة فيه كثير من الشبه بنظام المخبرين informers الذي أستخدم في بعض الولايات القديمة مثل (تشن) الصينية.

لم تكن البوشيدو غافلة عن كل تلك الأمور فقد جمعت من شتات آراء الفلاسفة ودعت إلى تشكيل حكومي أبوي مستمدة نفوذها من العطف والمحبة وليس كما تعودنا أن نراها تقوم على القوة والإرهاب وتبني سلطاتها على حماية المصالح المؤقتة.

وحدث بعد سنة ٣٠٠ ق.م بعد قليل أن أميرا في ولاية (تشن) لصينية الغربية كان يبحث عن رجل يعاونه في تقوية ولايته وإدارة الشئون وزيادة قوته العسكرية فوقع اختياره على (شانج يانج) وما لبث أن نال حظه عنده وأسند إليه منصبا وأقترح عليه إصلاحات شاملة عارضها الوزراء الآخرون ولكن أخذ بها في النهاية وهي ما يلي :

"أن يرتب الناس إلى مجموعات من الأسر تكون مسئولة بالتبادل عن السلوك الطيب إزاء بعضها البعض وتشارك بعضها البعض في العقوبات وكل فرد لا يبلغ عن مجرم يشطر نصفين من عند الوسط، والذي يبلغ عن مجرم يتلقى نفس المكافأة التي يتلقاها من يقطع رقبة جندي من الأعداء وكل من آوى مجرما يتلقى نفس العقوبة التي

يتلقاها من يستسلم للعدو، والأسرة التي بها فردان بالغان يجب أن تدفع ضرائب مزدوجة والبسالة العسكرية يكافئ عليها الحاكم بألقاب النبالة طبقا لجدول ثابت، وأولئك الذين يحاربون بعضهم البعض لوجود حزازات شخصية يعاقبون طبقا لجسامة اعتداءاتهم، والكل صغيرا أم كبيرا يجب أن يجبروا على العمل في أعمال رئيسية كالفلاحة والنسج، والذين ينتجون قدرا كبيرا من الحبوب أو الحرير يمكن أن يعفوا من الأعمال الشاقة وأولئك الذين كانوا ينشدون الكسب عن طريق الوظائف الثانوية (التجارة والحرف)، والكسالى والمعدمون يصبحون عبيدا وأفراد الأسرة الحاكمة يجب إلا يعتبروا منتمين إليها ما لم يظهروا موهبة عسكرية. "

وأصدق وصف للفلاسفة التسلطيين Authoritarians كان "ماداموا يعلمون الناس أن كل فرد يجب أن يجبر على العيش والعمل والتفكير وأن يموت بناء على رغبة الحاكم، كل هذا من أجل الدولة بغض النظر عن رغبات الفرد أو مصلحته الشخصية ولكن مادامت عبارة " الكلية " عبارة غير دقيقة فإننا سنتخلص من هذه العبارة ونلتزم بالتقاليد ونستمر في الإشارة إليهم على أنهم مشرعون. "

الفارس الياباني أستأثر بصفات تبقي إحساسه النبيل وأهم هذه الصفات هي رقة الجندي ويعني هذا أن الرأفة والعطف الذين يشعر بهما الساموراي تختلف عما يشعر بهما أي إنسان آخر ولكن

مشاعر الساموراي تفرض وجود شكل خاص من الرأفة التي ليست مجرد ظاهرة من مظاهر الغريزة بل يتجلى بها الاحترام والخشوع لفكرة العدالة. ويمكن اعتبار الرأفة عنده قوة للبطش والإنقاذ لأن الشفقة عندهم قوة تأييد لمصلحة من المصالح أو بطش لاستنكارها، وتأثر الساموراي تأثرا شديدا بآراء منشيوس وهو يبشر بقوة المحبة فقال " أن الإحسان له من القوة ما يذلل كل عقبة تعترض سبيله، وأن الألم مصدرا صادقا لجمال النفس وعذوبة الروح وكل إنسان على شيء من الفضيلة والإحسان يشاطر من يتألم بعواطفه ومشاعره[٣٨] "

وفي حادثة مشهورة في معركة فاصلة في تاريخ اليابان عام ١٨٨٤ م يروى أن فارس فاجأ عدوه أثناء اشتباك دموي وتمكن منه وطوقه بذراعه ولم يسمح لنفسه بإهراق دمه وفقا للأصول المعمول بها في مبادئ القتال في هذا الزمان والتي كانت تحظر سفك الدماء في ظروف كهذه إلا إذا كان المغلوب يماثل قوته كما سبق الإشارة لنا من قبل، وعندما قبض الفارس المذكور على عدوه حاول نزع قناعه فمانع بكل بقوته حرصا على كرامته وأستعمل الفارس الظافر كل ما لديه من خشونة القوة حتى تمكن من نزع قناعه فوجده شابا في ريعان الشباب والفتوة فساعده بكل حنو ورقة ورأفة على النهوض وتوسل إليه بلهجة أبوية أن يسرع بالرحيل قبل أن يفاجئه فرسان غيره

[٣٨] باتريك سميث ." اليابان رؤية جديدة" ص ١٩٧- ١٩٨.

ووعده أن سيفه لن يناله بأذى أبدا ولكن الفارس الشاب رفض العمل بنصيحته وتضرع له أن ينهي حياته إنقاذا لشرفهما معا، ولمع سيف المنتصر عدة مرات فوق رأس الفارس المهزوم وكل مرة يتذكر ابنه فيرتجف ذراعه ولا يقوى ولكن بعد تأكده من فشله في الرجاء وإصرار الأخر على ذلك تضرع للسماء أن تستقبل روح هذا الفتي الطاهر وبلحظة خاطفة لطخ سيفه بدمه، ولما انتهت الحرب عاد مكللا بالزهور في موكب المنتصرين ولكن رأسه كان مطأطأ للأسفل قاطب الجبين عليه كآبة محت كل ابتسامات النصر، فعاد إلى بيته وألقى بسيفه إلى الأبد وتفرغ لحياة الزهد والرهبنة وأنصرف عن الحياة بحثا عن الجنة والهدوء والسكينة.

يحتمل عدم تصديق هذه الرواية ولكن منها يستخلص معاني كثيرة وفضائل وقيم عن الرأفة وعن العدل ومن جملة الفلاسفة والقصص التي وردت تطعم العقلية اليابانية فوارسها بقيم وفضائل عن الرأفة والعدل وتعلمهم أن يكونوا مدججين بالسلاح ويستمعون لتغريد العصافير، نعم هذه هي النفسية اليابانية التي تدهشك والتي طعمت بالاستمتاع بالشعر والموسيقى حتى أن الفارس الياباني يغرس خنجره في قلب ضحيته ويتبعه بأبيات من الشعر وعلى الفور يرد الضحية وهو يفارق الحياة بتنظيم بيتين من الشعر من نفس الوزن والقافية أي أفكار هذه التي تستقبل الموت وهي تنظم الشعر؟ وأي أفكار هذه

التي تجعل الأمير يغرس في نفوس شعبه مبادئ عليا من القيم والمثل الأخلاقية يسموا بها مع أمته ويعلمهم القوة والرأفة؟ يعلمهم التحلي بأعظم ما ورد إليهم من تراث الأجداد وأنبل ما وصل إليهم من أقوال الفلاسفة.[٣٩]

[٣٩] المرجع السابق ص ١٢٠- ١٢٢.